تشابه أسماء!

منذُ أن تفتَّحتْ زهرةُ عمره على الدنيا ، وبدأ ينفتحُ على الحياةِ خارج نطاق أسرته وهو يتأذَّى... يُسئلُ عن اسمه واسم أبيه فينطلقُ لسانه، ثم يتوقَّف! يستحثَّهُ السائلُ فيكملُ مُكرَهًا يتعثرُ في طياتِ خجلِه... لا يجدُ ما يبرِّرُ به ذلك الاسم البشع الذي كان ولا يزال نقطة ضعفه التي يتوارى منها... مع كلِّ سؤالٍ عن اسمه ينتابه إحساسٌ لاذعٌ، وكأنَّكَ تُعَرِّي ظهركَ لجلادك فيعلوكَ بسياطٍ من السخريةِ لا يملُّ ولا يتوقف!

كلُّنا يعرف أنَّه لا يحقُّ لأحدٍ أن يستعملَ ما يخصُّكَ بغير إذنكَ عدا اسمكَ هو حقٌّ مشاعٌ للجميع... والاسمُ الذي تتسمَّى به ليس من كسبِ يدكَ، ولكنَّه جناية والدكَ فكيف تُحاسب عليه؟! فما بالكَ باسم جدِّ جدِّكَ الذي تَسَمَّى به قبل أن تُدَوَّنُ الدواوين في الزمن الغابر؟!

سمع عن أشخاصٍ غيَّروا أسماءَهم بعد جهدٍ وعناءٍ، وقضايا ومحاكم! لكن هل في مقدوركَ أن تغيرَ اسم جدِّكَ؟! لقب العائلة التي تعتزُّ به في محيطها، فإذا ما غادرتها إلى خارجها صِرتَ أضحوكةً في الأفواه، فاختار أن يبقى اسمه حبيسًا في صدره ما لم يُستَعلَمُ عنه رسميًّا، أو يجري التعاملُ به على الورق...

وكثيرًا ما تجري الأقدارُ على عجائبٍ ومفارقاتٍ، إذ يدخلُ اسمُ العائلة المثيرُ للسخرية هذا عالمَ الشهرة فجأة! ويتسلَّم أحدُ أقاربه من بعيد حقيبةً وزاريةً، ويُعتَمدُ وزيرًا، ليصبحَ اسمُه هذا نارًا على علمٍ!

كان الاسمُ مُمَيَّزًا لا يتكرَّرُ، ولن يتصورَ أحدٌ أنَّهُ - وهو يحمل لقبه نفسه- لم يلتقيه يومًا! يتطابق الاسمان بينهما أبًا وجدًا ولم يره يومًا، وربما لم يسمع به! وكلُّ عائلةٍ تتفرعُ وتتسعُ، تضمُّ الغنيَّ والفقيرَ، وتتسعُ الهوة بين أفرعها الكثيرة باتساع الفروق الطبقية فيما بينها...

لم يهتم بهذه الحقيقة وآثر أن يعيش في عالم الأحلام... أخيرًا شعرَ بقيمته، ولتتحول نقطةُ ضعفه إلى نقطةِ قوةٍ ودعمٍ، وأصبحَ لقبُه - بقدرةِ قادرٍ- تاجًا فوق رأسِه حتى أنَّه طغى على اسمه واسم وأبيه، وأصبح مفتاحًا ينفذ معه عبر كلِّ بابٍ!

كان عهده بسوق العمل ليس ببعيد؛ فقد كان حديثَ التخرُّجِ في كليَّةٍ يتخرَّج فيها أمثاله ألوفٌ مؤلفةٌ... وكم أُوصدتْ دونه أبوابٌ... يتساوى في ذلك العمل الحكومي مع العمل الحرِّ، والمشروعات العامة ونظيرتها الخاصة! لكن اليوم كلُّ شيءٍ تغيَّر فالجميعُ يخطبُ ودَّه، ويتقرَّبُ إليه!

تمسَّكَ بالحُلم... اختلقَ من الوهم قصصًا حاكها أحداثًا قديمة وحديثة جمعته بالقريب صاحب الوجاهة في ماضيه ذكريات الطفولة

والشباب، وفي حاضره ومستقبله مشروعات وأحلام... وصدَّق الكذبة وروَّجَ لها، ولو اقتصرت مكاسبه منها على الكفِّ عن الاستهزاء به فهو المستفيد...

دفعه طموحُه إلى جعل الخيال حقيقةً فترصَّدَ الرجلَ، وتابع نشاطه عبر صفحات الجرائد، ووسائل الإعلام فتعرَّف على جميع حركاته، وسكناته... تأكَّدَ من عودته بعد سفرِ أيامٍ من الخارج فذهب إلى مكتبه ورابط عنده... التقى بمدير مكتبه، فعرَّفه بنفسه... ليس لديه موعدٌ مسبقٌ، فلا مواعيد بين الأهل... تحيَّر مدير مكتبه أمام جرأته، ولباقته، وثقته... انساقَ أكثر في تقديم نفسه فأعطاه كارتًا يحمل اسمه... بدا أمامه صادقًا، والأمر واضحًا لا يقبل الشكَّ فبالغ في احترامه، وتبجيله...

استأذنه للحظة ليخبر جناب الوزير عن ضيفه الذي تردَّد مراتٍ على مكتبه، ونسج على سمعه وسمع ضيوفه قصصًا جمعت بينه وبينه... غاب مدير مكتبه فانتابه القلق، ثم انفتح بابٌ آخرٌ دلف منه رجلان أشداء في أجساد العمالقة وسحنة المردة، انتزعاه من مكانه انتزاعًا ليخرجَ تودِّعه لعناتُ مدير مكتب الوزير، وقد تلقَّى بدوره وابلًا من السباب من جناب الوزير الذي تأكَّد في ظنِّه أن دائرةَ أعدائه اتسعت، وأنَّ مكائدهم قد

تطوَّرت حتى جنَّدوا ذلك المزوِّر المُدَّعي الذي يستغلُ اسمه لتحقيق أغراضه...

فرَّ بجلده هاربًا قبل أن يتطوَّر الأمرُ إلى استدعاء الشرطة... أيقن أنَّه أصبحَ لجنابِ الوزير صيدًا سيتتبعه بضراوة حتى يقتنصه، ويظفر به! سيطرت عليه حالةٌ من الرعب... فكَّر أن يغادر مسكنه وعمله، لكن الأيامَ أثبتتْ له أنَّه أهون على جنابه من أن يذكره، فنسيه في خضم أعماله الجسيمة، ومشروعاته المتسعة...

وعاش صاحبنا في أعين الناس كبيرًا... اسمًا معروفًا، لكنَّه في الحقيقة لا يعدو أكثر من كونه... مجرد تشابه أسماء!

*****